معاجم ألفاظ الحضارة في العربية المعاصرة
مناهجها، ووظائفها، وقيمتها

بقلم: د. خالد فهمي إبراهيم محمد*

(١) مدخل:

يوشك لفظ الحضارة أن يكون وصفًا جامعًا للمنجز الإنساني على الأرض، وهو لفظ يختزن دلالات الترقِّي والتقدم والإعجاز واغتيال التوحش، ويعني التربية وما يدور في فلكها من معاني التهذيب.

ومن ثم فإنّ ادعاء أنّ العربية تملك رصيدًا وافرًا من ألفاظ الحضارة يلزمه مقدمة صادقة أن العربية شاهدة على حضارة عريقة أنتجها أصحابها على امتداد التاريخ، ولا شك أنّ الإسلام العظيم كان المفجِّر الأول لصناعة هذه الحضارة في ميادين الحياة المختلفة والمتنوعة بما أنتجه الصانع العربي المسلم، وأنجزته معارف هذا العربي المسلم.

صحيح أنّ العرب منذ أن دانوا لله تعالى بالإسلام، وتابعوا رسول الإسلام محمدًا ﷺ قدّموا للإنسانية نتاجًا وافرًا من المستحدثات والأدوات، والآلات، والإبداعات، والفنون، وهو ما نجد أسماءه وافرة مبثوثة في المعجمات التي صنعها المعجميون العرب على امتداد هذا

التاريخ المعجمي العريق، ولاسيما ما كان من هذه الألفاظ في ما يعرف بمعجمات الموضوعات والمعاني.

ولكن العناية المعاصرة بألفاظ الحضارة في الثقافة العربية، سواء كانت بجهد فردي أو جماعي كانت لإثبات قدرة اللغة العربية على استيعاب منجز العصر، ومستحدثاته، ومخترعات الأمم المتقدمة، مما يقطع الطريق على كل الذين يحاربون التمكين للعربية، وهو ما نلمسه واضحًا في تقديم بدر الدين أبي غازي، مقرر لجنتي ألفاظ الحضارة، والفنون بين يدي (معجم ألفاظ الحضارة والفنون، طبعة المجمع اللغوي، بالقاهرة سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص: هـ) عندما قرر أنّ للغة قدرة ظاهرة على استيعاب مستحدثات العصر، وهو ما يبرهن على إمكان تطويع اللغة لمواجهة كل مستحدثات الحضارة الحديثة".

وهي غاية نبيلة تسهم في مقارنة بقايا الفكر الاستعماري الذي طالما دأب على تأخير رتبة اللسان القومي بين أبناء الوطن في حظر مناطق استعمالها في أروقة العلم، وأجهزة إدارة الدولة.

وهذا المقال يفتح هذا الملف ليعين على فهم واحد من أصول هويتنا في مرحلة دقيقة من عمر الدولة المصرية، وحياتها، وهي تستقبل مرحلة جديدة وخطيرة تستلزم التنبه إلى لسانها القومي، وأهمية العناية به، وتذليل العقبات في سبيل سيادته في العلم والإعلام والثقافة والحياة جميعًا.

(٢) العربية وألفاظ الحضارة: تاريخ عريق وتراث ممتد

إنّ فحص تراث العربية في مجال الدرس اللغوي تنظيرًا وتطبيقًا يجد تنبّها مبكرًا إلى أثر الإسلام العظيم في ترقي اللسان العربي في مجال الثروة اللفظية بما فتح هذا الدين العظيم من ميادين الحضارة علمًا وصناعة وفنًّا لدرجة أنّ بعضًا من أصحاب المعاجم العربية تنبهوا إلى هذا التأثير الإيجابي، يقول الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ في كتابه "**فقه اللغة وسرّ العربية**" (٢/٥٢٤-٥٢٥ طبعة مكتبة الخانجي، بالقاهرة بتحقيق الدكتور خالد فهمي سنة ١٩٩٨م): "فصل... في أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها"، وعدد منها ألفاظ: " الزكاة" و"الحج" و"المحراب" و"المنارة" وغيرها.

وهي -كما نرى- موزعة على مفاهيم جديدة أحدثها الإسلام في جملة ما أوجده من التشريعات، وموزعة على ما أنجزه الإنسان المسلم من حضارة بفعل ما فجّره الإسلام في النفوس التي آمنت، وترجمته في صورة منجز حضاري؛ في العمارة وغيرها.

وهذا الارتباط بين ثورة الحضارة المدوّنة بالعربية وبين الإسلام أمر مستقر في النظر العلمي شرقًا وغربًا، وهو مازال مستمرًا إلى اليوم، يقول آدم جيسك في مقدمة كتابه "**تقاليد المخطوط العربي**"، النسخة العربية، طبعة معهد المخطوطات العربية، بالقاهرة سنة ٢٠٠٨م (١/١٥): "الحضارة العربية الإسلامية حضارة كتاب، والكتاب فيها ذو قداسة خاصة، اكتسبها من الدين الإسلامي ذاته، وتحديدًا كتاب هذا الدين (القرآن الكريم) الذي لا ينافسه أيّ كتاب آخر لدى العرب والمسلمين.

"هذه المكانة العالية التي يشغلها الكتاب حفزت المجهود على إنتاجه مبكرًا حتى ليمكن القول إنه وهذه الحضارة قرينان بدآ معًا، فما كان القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) ينتصف حتى جرى القلم بالمعرفة، ورأينا صحائف وكتبًا تتوالى".

على أنّ ما يهمنا التنبيه عليه أنّ هذه التراكمات المعرفية المدوّنة في صورة مادية هي الكتب يعني في أيسر صورها، وأوضحها، وأصرحها، سرعة هذه اللغة، ونشاطها، وقدرتها الظاهرة على تلبية احتياجات الهجوم الحضاري الذي صنعه الدين العظيم من أسماء، ومفردات للتعبير عن هذه المنجزات الحضارية.

وإذا كان تاريخ المعجمية العربية العامة موصوفًا بالازدهار والعراقة، بسبب من تقدّمها الزمني، وبسبب من تنوع مناهجها، فإنّ الحكم نفسه صالح لكي يطلق على تاريخ المعجمية العربية المختصة.

وهو ما يعني أنّ العربية استطاعت أن تلبِّي مسرعة حاجات الوضع الحضاري الذي أوجده وضع الأمّة العربية الجديد في ظلال القرآن الكريم، ذلك أنه منذ القرن الرابع الهجري بدأ تنامي ظهور معجمات لغوية مختصة اعتنت بجمع الألفاظ الحضارية الدالة على المستحدثات المعرفية والتطبيقية معًا.

وقد اتخذت هذه العناية بألفاظ الحضارة الصور الثلاث التالية:

أ - فصول وأبواب كاملة في المعجمات الموضوعية.

ب- فصول وأبواب كاملة في المعجمات الاصطلاحية المتعددة العلوم (معاجم المصطلحيات).

جـ- معجمات كاملة أريدت لمعالجة طوائف من الألفاظ الحضارية، بحيث استقلت معجمات خاصة بالألفاظ فن بعينه.

(٣) ملامح العناية بألفاظ الحضارة في تاريخ المعجمية العربية قديمًا

وإذا كانت الحضارة في واحد من أشهر تعاريفها هي: كل مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي، فإنّ الحضارة العربية الإسلامية التي ازدهرت، وعبّر اللسان العربي عن هذا الازدهار في نطاقها الزمني القديم، وجدت -كما سبق أن قلنا- معجمات رصدت ألفاظ هذه المظاهر الحضارية.

وفيما يلي محاولة لرصد بعض علامات هذه العناية بألفاظ الحضارة:

أولاً- في المعجمات الموضوعية:

عرف تاريخ المعجمية العربية نمطًا من المعجمات جمع الألفاظ وصنّفها تحت موضوعات يجمع بينها رابط دلالي معيّن.

وقد كان هذا النمط أسبق من غيره من معجمات الألفاظ المرتبة صوتيًا أو ألفبائيًا أو وفق الأبنية في تاريخ التصنيف المعجمي عند العرب.

وفي معجم الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة ٢٢٤هـ أبواب كاملة تُظهر ما توصل إليه العرب، واستقر في نطاقهم الجغرافي الممتد من مظاهر الحضارة من مثل:

أ- كتاب اللباس، ويضم ستة عشر بابًا تحتوي أسماء الملابس وأنواعها، وطرق نسجها، ومعالجتها إلخ.

ب- كتاب الأطعمة، ويضم سبعة وعشرين بابًا تحتوي أسماء أنواع الطعام، وكيفيات طبخها، ومعالجتها إلخ. وربما أمكن أن نلحق به بابًا أورد فيه المعجم أسماء الخمور والأشربة.

ج- كتاب الدور والأرضين، وفيه أسماء الأبنية والمراكب التي هي المواصلات بلغة العصر الحديث وغير ذلك.

د- كتاب السلاح بأنواعه المختلفة.

وهذه الكتب أو الأقسام بما تحتويه داخلها من ألفاظ كثيرة موزعة على أبواب أو فصول صغرى متكررة في كثير من معجمات الموضوعات التي تلت معجم الغريب المصنف من مثل: مبادئ اللغة، للخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢١هـ، وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ والمخصص، لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ.

وإذا كان هذا المعجم الموضوعي الأخير (المخصص) هو أوسع معجمات الموضوعات مادة بإطلاق، فإنّ فقه اللغة وسرّ العربية للثعالبي يعدّ أصرح المعجمات الموضوعية عناية بألفاظ الحضارة في العربية.

وفيما يلي بيان علامات ذلك:

جمع الثعالبي في أكثر من باب ما يشعر بوعيه بطبيعة ما بين حقول ألفاظ الحضارة ولاسيما المادية من تقارب، فقد جمع ألفاظ اللباس وما يتصل به، والسلاح وما ينضاف إليه، وسائر الأدوات وما يأخذ مأخذها في حيز واحد هو الباب الثالث والعشرون (٢/٤٠٨-٤٤٩ من طبعة مكتبة الخانجي سنة ١٩٩٨م بتحقيقي) ويلمس قارئ هذا الباب بفصوله المختلفة

ما أنجزته الحضارة العربية من مظاهر الترقّي في وسائل العيش المتنوعة مما يتوزع على مجالات الملابس وما يدور في فلكها من أثاث وفرش وحلي وزينة، وعلى مجالات السلاح بأنواعه والأوعية وغيرها من أدوات.

ثم يفرد الثعالبي في الباب الرابع والعشرين للأطعمة والأشربة (٢/٤٥٠-٤٦٥).

وقراءة الثعالبي وفحصه تقدّم خدمة جليلة لتحليل الوضع الحضاري الذي وصلت إليه الأمّة العربية بعد انفتاحها المنظم على العالم حولها بفضل فتوحات الإسلام، ذلك أنه يمكن مقارنة مظاهر التحضر مثلاً في أبواب الأطعمة والملابس والزينة والأدوات والأواني والعطور وغير ذلك التي ابتكرها العرب، وتلك التي نقلوها عن غيرهم من الأمم المجاورة، ووضعت لها العربية أسماء وألفاظا بما كان قبل مجيئ الإسلام العظيم.

ففي الفصل الرابع من الباب التاسع والعشرين (٢/٥٢٦-٥٣٠) يرصد الثعالبي الألفاظ الحضارية التي عرفها الفُرس ونقلها العرب بعد أن وضعوا لها تسميات بلسانها.

وقد توزعت هذه الألفاظ الحضارية على القوائم التالية:

أ- ألفاظ الأواني: (الكوز/الإبريق/والطست/والخوان/والطبق/والسُّكّرجة).

ب- ألفاظ الملابس: (السّمور/ والسنجاب/ والقاقمُّ/ والديباج/ والسندس).

ج- ألفاظ الجواهر: (الياقوت/ والفَيروزج/ والبلور).

د- ألفاظ المخبوزات: (السميذ/ والدرمك/ والجردق/ والكعك).

هـ- ألفاظ الطبيخ: (السكباج/ والدوغباج/ والنارناج).

و- ألفاظ الحلاوات: (الفالوذج/ والجوزينج/ واللوزينج).

ز- ألفاظ الأشربة و(العصائر): (الجلاب/ والسكنجين/ والجلنجين).

ح- ألفاظ الأفاويه (التوابل): (الفلفل/ والكرويا/ والزنجبيل).

ط- ألفاظ الرياحين والزهور: (النرجس/ والمرزنجوش/ والياسمين/ والمسك/ والعنبر/ والكافور/ والصندل).

وقد قصدت قصدًا إلى ما يمكن أن يعدّ تطويلاً لأقرر أنّ العربية في تراثها المعجمي اعتنت بجمع ألفاظ مظاهر الحضارة في هذه العصور القديمة، وقد توقفت أمام مظاهر الحضارة التطبيقية المادية في تجليات ما يستعمله الإنسان على طريق تحقيق جودة الحياة في ميادينها المادية المختلفة، وهو ما ظهر في معجمات ألفاظ الحضارة الحديثة التي رأت أن مجاليها الكبرى، وانعكاساتها الظاهرة إنما تكمن في (الثياب وما يتعلق بها/ والمنزل والأدوات المنزلية/ والفنون التشكيلية والسينما) إلخ على ما فعله معجم ألفاظ الحضارة الحديثة للمجمع اللغوي بالقاهرة.

ثانيًا- في معاجم المصطلحات:

فيما مر ظهرت عناية أصحاب المعاجم الموضوعية بقطاع عريض من ألفاظ مظاهر الحضارة في تجلياتها التطبيقية والصناعية التي عرفها العرب، وجودوا بها مناطق حياتهم، واستوعبتها العربية، وعبرت عنها منذ ترقي العرب وتحضرهم قديمًا.

وفي الوقت نفسه أظهرت العربية قدرة فائقة في التعبير عن مظاهر الترقي الفني والأدبي والعلمي، واستوعبت المفاهيم الجديدة، ووضعت لها ألفاظًا جديدة مستعملة طرقًا متنوعة.

وقد تجلّت هذه القدرة اللغوية للعربية فيما حفظه لنا الزمان من قوائم مطوّلة لألفاظ مظاهر الترقي الحضاري في ميادين العلوم والآداب والفنون، وهو ما ظهر في قطاع عريض من الأعمال المعجمية التي كان شغلها الشاغل جمع هذه الألفاظ أو المصطلحات، وتعريفها.

وفي المعاجم التي جمعت مصطلحات العلوم والفنون والآداب تميّزت طائفة منها بترتيب ألفاظ العلوم هذه مجاليًا، بمعنى أنّ عددًا من هذه المعجمات جمع كل مجموعة من ألفاظ مجال بعينه، أو علم بعينه في حيّز خاص. ومن أشهر هذه المعجمات التي صنعت هذا (**مفاتيح العلوم**، للخوارزمي الكاتب المتوفى سنة ١٨٧هـ) و(**مقاليد العلوم في الحدود والرسوم**، المنسوب للسيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ).

وفحص منهجية مفاتيح العلوم دالة على وعي مبكر جدًّا بدوائر المعرفة التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية، ذلك أنه قسم معجمه على قسمين هما:

أ – قسم جمع ألفاظ الشريعة والعلوم العربية، وقد ضم الفقه وعلم الكلام والنحو والعروض والشعر والأخبار والتاريخ.

ب– قسم جمع علوم العجم أو الحكمة أو العملية، وقد ضمّ الفلسفة والطب والمنطق والهندسة والموسيقى والحيل أو الميكانيكا والكيمياء.

وفي القسم الثاني تعيينًا دليل قاطع على قدرة العربية على استيعاب المنجز الحضاري الوافد بمظاهره المختلفة علميًّا وفنيًّا.

والأمر نفسه ظاهر في قائمة فصول معجم (مقاليد العلوم) التي جمعت قوائم الألفاظ موزعة على واحد وعشرين علمًا.

ثالثًا– في معجمات مختصة مستقلة:

ومن جهة أخرى عرفت المعجمية العربية قطاعات كثيرة متنوعة استقل كل قطاع بجمع ألفاظ كل علم على حدة في شكل من أشكال تطوير العمل المعجمي دال على ازدهار المنجز الحضاري للأمّة العربية المسلمة.

لقد عرفت المعجمية العربية المختصة معجمات لألفاظ الآداب والفنون والعلوم المختلفة، مما يغطي مساحات شاسعة لمظاهر الترقي العربي الإسلامي.

وثمة دراسات كاملة وقفت أمام عدد من قطاعات هذا العمل المعجمي من مثل الدراسات التي قامت لدرس معاجم الطب والصيدلة ومعاجم ألفاظ الفقه وأصول الفقه والتصوف وغيرها.

والتوقف أمام هذه الملامح الثلاثة السابقة يوضح لنا أنّ العربية والتاريخ الممتد من مجيئ الإسلام إلى ما قبل العصر الحديث لم تعجز عن التعبير عمّا جدّ من مستحدثات حضارية في المظاهر المتمدنة جميعًا سواء في تلك التي ابتكرها العقل العربي المسلم أو تلك التي نقلتها الحضارة العربية من غيرها من الحضارات من خلال الترجمات المختلفة عن اللغات.

وقد عكست هذه الملامح الثلاثة السابقة أنّ الروح العربية طامحة إلى تجديد الحياة وتجويدها وتطوير سبل العيش، وتنمية سلوك الحياة المادية في

البيت والمجتمع، وفي الطعام والشراب والملابس، وفي الزينات، وفي مواجهة المخاطر، وفي مواجهة العدوّ، وفي سبل المتعة والترفيه.

وهو وجه مهم يعكس طبيعة الفكرة الإسلامية المتوازنة التي تلبّي مطالب الجسد جميعًا وتلبّي رغبات الروح أيضًا.

وهو وجه مهم أيضًا يعكس طبيعة هذه الفكرة الإسلامية المنفتحة على الحياة، الحريصة على تجويدها وتحسينها وتيسيرها، وهو الوجه الذي حاولت طوائف كثيرة في مراحل التراجع الحضاري أن تطمس ملامحه التي كشفت ملامح العناية بألفاظ الحضارة في المعجمية التراثية وأظهرت وضاءتها وبريقها الذي كان ساطعًا.

(٤) امتداد العناية بألفاظ الحضارة في العربية في العصر الحديث:

ارتبطت النهضة الحديثة في البلدان العربية بإعادة إحياء اللسان وهو ما بدا طبيعيًّا من كل حركات التحرر الوطني التي أدركت في المشرق والمغرب العربيين جميعًا أنّ استعادة الذات العربية لوهجها الحضاري الذي كان انطمس بفضل عوامل كثيرة منها الاستعمار الغربي الذي كان من آلياته إضعاف اللغة الوطنية واغتيال قدراتها العلمية وتعيينها.

ومن عجب أن ترى مناقشة وإسهامًا لعدد من القضايا المتعلقة باللغة العربية في تراث رواد حركات التحرر الوطني في عموم الوطن العربي، ترى ذلك في الإنتاج الفكري للأفغاني ومحمد عبده ومحب الدين الخطيب وحسن البنا والعقّاد، وتراه في الإنتاج الفكري للبشير الإبراهيمي، ولابن عاشور، ولعبد الله كنون، ولمالك بن نبي، ولغيرهم من أعلام المجاهدين المعاصرين.

وقد واكب ذلك وبرهن عليه تنامي العناية بخدمة ألفاظ الحضارة الحديثة، وسوف تقف هذه الورقة أمام ملامح هذه العناية المعاصرة، مركّزة القول على شريحة من ألفاظ الحضارة الحديثة في العربية وهي تلك المتعلقة بالمجالات التطبيقية أو العملية في ميادين العلم والفن.

وسوف تختار الورقة عددًا من المعجمات المعاصرة التي تفرغت لجمع الألفاظ الحضارة الحديثة في اللسان العربي، مراعية جهود الأفراد، وجهد المؤسسات العلمية المعنية بخدمة ترقية اللغة العربية في الشرق والغرب العربيين جميعًا.

وفيما يلي رصد لبعض المحاولات المختارة مرتّبة زمنيًّا:

أولاً- عمل المؤسسات اللغوية في المشرق العربي:

أ- معجم ألفاظ الحضارة الحديثة ومصطلحات الفنون لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

ب- معجم الموسيقى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م.

ج- معجم التربية الرياضية لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

ثانيًا- عمل المؤسسات اللغوية في المغرب العربي:

أ- معجم الطحانة والخبازة والفرانة للمكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي ومصلحة التعريب التابعة لمكتب التسويق والتصدير بالدار البيضاء.

ثالثًا- عمل الأفراد:

أ- معجم الآلة والأداة وما تتبعها من الملابس والمرافق والهنات لمعروف الرصافي بغداد ١٩٨٠م.

ب- المعجم العربي لأسماء الملابس للدكتور رجب عبد الجواد إبراهيم دار الآفاق العربية بالقاهرة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

وهذه القائمة النوعية من معجمات ألفاظ الحضارة الحديثة في اللغة العربية، مجرد عينة أريد من وراء اختيارها الدلالة على تنوّع العناية بهذه الطائفة من الألفاظ العربية الدائرة في حقول الحضارة الحديثة، والدلالة على استغراق هذه العناية لجغرافيا الوطن العربي شرقًا وغربًا، والدلالة على شمولها لجهاد الأفراد والمؤسسات معًا.

وتمثّل هذه القائمة دليلاً عمليًّا جديدًا على نجاح اللغة العربية في اختبار قبول التحديث، وهو النجاح المسبوق بنجاحات قديمة موثقة تاريخيًا، مسبوق بنجاح مبهر آخر لهذه اللغة فيما نقلته وترجمته من علوم وفنون وآداب وافدة من اللغات الإغريقية والسريانية والفارسية في القرون الهجرية الأولى.

ومن المهم جدًّا أن نقرر أنّ العمل في مجال خدمة ألفاظ الحضارة الحديثة معجميًّا ولغويًّا ينمو ويتطور مع الأيام، وهو ما يمكن التدليل عليه بعمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي أصدر سنة ١٩٨٠م معجمه لألفاظ الحضارة الحديثة ومصطلحات الفنون جامعًا بين دفتيه مجموعة من الألفاظ الموزعة على الحقول الحضارية التالية: الثياب وما يتعلق بها، المأكولات، المنزل والأدوات المنزلية، والأماكن وما يتعلق بها، والمكتب وأدواته،

والمركبات وما يتعلق بها، والحِرَف والصناعات والمواد المستعملة فيها، والتربية الرياضية وألفاظ من التصوير والنحت، والرسم، والخزف إلخ.

وأحد أشكال هذا النمو والتطور المرصود كان في تحويل بعض قوائم ألفاظ بعض حقول الحضارة الحديثة السابقة إلى معجمات كاملة مستقلة؛ فمثلاً يجد قارئ معجم ألفاظ الحضارة الحديثة عددًا من المداخل المتعلقة بالموسيقى، وهو الذي نما وتطور ليكون معجمًا كاملاً للموسيقى يتضمن الألفاظ المتعلقة بالآلات الموسيقية المختلفة، والأشكال الموسيقية المتنوعة.

وإذا كان معجم بألفاظ الحضارة الحديثة صنع حقلاً يضم ألفاظ التربية الرياضية جمع واحدًا وخمسين مدخلاً، فإنّ المجمع اللغوي نفسه طور هذا ليظهر معجمًا كاملاً مستقلاً لألفاظ التربية الرياضية الذي أصدرته لجنة ألفاظ الحضارة.

ففي هذين المثالين دليل ظاهر على وعي العربية المعاصرة ومتابعتها وتعاطيها مع التطور الذي يصيب الحياة في مجالات التحضر المتنوعة.

وهو ينعكس على تنامي ظهور الألفاظ العربية في هذه المجالات جميعًا.

(٥) منهجية ترتيب المداخل في معاجم:

ألفاظ الحضارة في العربية المعاصرة: (تنامي خطاب التعبير).

يكاد يسيطر على المعجمية المعاصرة الركون إلى استعمال منهجية ترتيب المداخل أو الألفاظ وفق النظام الألفبائي.

وهذه السيطرة مردّها إلى ارتباط تطبيقات هذا المنهج بمنظور مستقر في صناعة المعجم هو رعاية المستعمل الذي يوافقه هذا الترتيب ليسره وسهولته. وهو اليسر الذي يعنى تحقيق أمرين معًا هما:

توفير المجهود.

وتوفير الوقت.

والغالب على بناء معاجم ألفاظ الحضارة الحديثة هو اتباع المنهج الألفبائي، أي: ترتيب الكلمات حسب أوائلها ابتداء من الألِف وانتهاء بالياء، وفق الترتيب المشرقي لهذه الحروف.

وهو المنهج الذي تراه في ترتيب مداخل معجم ألفاظ الحضارة الحديثة ومعجم الطحانة والخبازة والفرانة، والمعجم العربي لألفاظ الملابس.

وإمعانًا في تطبيقات منهجية التيسير لجأت هذه المعجمات إلى ترتيب ألفاظها وفق منطوقها؛ أي من دون اللجوء إلى الترتيب وفق منهجية التجذير، أو مراعاة الجذور، وهو المنهج الذي يحقق ما يلي:

- التوسع في التيسير.

- والتخلص من المشكلات العلمية الناشئة عن منهجية الترتيب وفق الرد إلى الجذر، من مثل: التخلص من أحرف الزيادة، والتضعيف، ومعرفة أصل الألِف إن وجدت إلخ.

- والتخلص من المشكلات العلمية الناشئة عن الألفاظ المعرّبة عن اللغات الأخرى؛ وعدم وجود آلية لاستخراج جذر لها.

غير أنّ عددًا من معاجم ألفاظ الحضارة الحديثة لجأت إلى ترتيب ألفاظها وفق الألفبائية اللاتينية ؛ أي أنّ المداخل وردت مرتبة وفق اللغة الإنجليزية مرتّبة وفق النظام الألفبائى الإنجليزي، بلا مسوّغ علمي، ولا يُعتذر في هذا المجال بأنّ جمهرة ألفاظ الحضارة في حقلَيْ الموسيقى والتربية الرياضية واردة من الحضارة الغربية، ومن لغات أجنبية ؛ ذلك أنّ كثيرًا من الألفاظ الحضارية في هذين الحقلين ناشئ من المعجمية التراثية عن طريق إعادة إحياء مفردات قديمة حُمِّلت بدلالات معاصرة فنية أو حضارية.

وأصل رعاية منظور المستقبل، وهو المواطن العربي كان يقتضي ترتيب ألفاظ الحضارة في هذين المجالين، وفق الترتيب الألفبائي العربي.

(٦) معاجم ألفاظ الحضارة في العربية في العصر الحديث قيمتها ووظائفها

إنّ ثمة فوائد كثيرة لظهور معجمات ألفاظ الحضارة، ولاسيما في هذه المرحلة التي يعيد العالم العربي اكتشاف نفسه من جديد، وهو الاكتشاف الذي سيلزمه ولاشك إعادة تقييم ممتلكاته، ومواهبه، ومعارفه جميعًا.

ولا تقف الفوائد عند حدود الإفادة العملية مما ضمته هذه المعجمات من ألفاظ، ومصطلحات موزعة على مجالات الحضارة المختلفة، وهي في حد ذاتها قيمة مقدرة، ولكنها تتجاوز لتغطي مساحات أخرى من الوظائف والغايات.

وفيما يلي محاولة لرصد عدد من أظهر الوظائف التي يمكن أن تفي بها هذه المعجمات المعاصرة لألفاظ الحضارة الحديثة.

أولاً– الوظائف اللسانية / أو اللغوية:

والمقصود بهذه الوظيفة الدلالة على قدرة العربية –بما هي لغة عريقة– على استيعاب ما يجدّ من مستجدات الحضارة في ميادينها المختلفة.

وهو الأمر الذي نلحّ عليه في مواجهة حالة من التشكيك في قدرة اللسان العربي في ظل هجمة المعارف الحديثة من جانب، وفي ظل أصوات عالية تدعو إلى تعلم هذه المعارف باللغات الأجنبية، وهو الأمر الذي لا نجد له صدى في القوميات المختلفة؛ إذ تحرص كل قومية على توطين العلم والمعرفة الحديثة بلغاتها الوطنية.

ومجموع ما ورد في هذه المعجمات الخاصة بألفاظ الحضارة الحديثة، وقسم كبير منها بحكم الوضع الحضاري المتقدم للغرب وارد من هذه اللغات الغربية، استطاعت اللغة العربية أن تعبّر عنه، وتخلق الصيغ العربية المناسبة للدلالة على هذه المفاهيم بطرق متنوعة تقريبًا، أو إعادة إحياء لألفاظ قديمة بعد تحميلها بدلالات جديدة.

لقد برهنت هذه المعجمات بما ضمته من ألفاظ الحضارة الحديثة الوافدة على قدراتها الوافرة صوتيًّا وصرفيًّا ودلاليًّا على مواجهة تطور الحياة، وترقيها.

ثانيًا– الوظيفة الدينية والحضارية:

وقد دلت قراءة هذه المعجمات بما احتوته من ألفاظ متنوعة، موزعة على مجالات الحضارة المختلفة على مسألة مهمة جدًا نحب أن نلح عليها، ألا وهي تصور الفكرة الإسلامية للحياة والكون، ذلك أنّ فحص مفردات هذه المعجمات أنّ الإسلام يرعى قيم الترقّي والتمرّس للحياة

الإنسانية، ويتعاطف مع مظاهر التجويد والتحسين ترعى صناعة الجودة للحياة الإنسانية في بعديها المادي بما يؤازره من تطبيقات صناعية، والروحي بما يؤازره من فنون وآداب وألعاب وترفيه وتهذيب إلخ.

إنّ انفتاح المعجم الحضاري، وحفاوته بمظاهر الترقّي لجوانب الحياة المختلفة دالّ على شمول الفكرة الإسلامية التي تعبّر عنها اللغة العربية، وتعطي جهازها الصوتي والصرفي على الفصائل مع هذه النظرة الشاملة المستوعبة المتوازنة للحياة الإنسانية.

كما أنّ هذه المعجمات أشارت من طرف آخر إلى أنّ التصور الإسلامي يرحب بالمنجز الحضاري المتنوع من دون النظر إلى طبيعة صانعه، أو عرقه، أو دينه، أو لونه، وهو ما يعكس قبولاً واقعيًّا للآخر، والنقل عنه، والإفادة من منجزه، والاعتراف به، وتقديره.

ثالثًا- الوظيفة المعرفية والتاريخية:

في واحدة من زوايا النظر إلى المعجم المختص يدور أمره على كونه مخزنًا للمعرفة والعلم، ذلك أنّ المصطلحات وما تحتها من مفاهيم تمثّل تلخيصًا مكثفًا لما أنجزه الإنسان في رحلة الكشف العلمي، بحيث غدت هذه الألفاظ أو المصطلحات عناوين على مبتكرات العلماء على امتداد التاريخ.

ومن هنا فإنه بالإمكان أن يتعامل مع المعجمات الجامعة لألفاظ الحضارة سواء القديمة منها أو الحديثة باعتبارها مصادر مهمة لإعادة كتابة تاريخ العلم في مجالات مختلفة.

وهذا الملمح لم ينتبه إليه أحد -فيما يظهر- من علماء تاريخ العلوم، والحق أنّ هذا الجانب يسهم في حسم كثير من الدعاوى في هذا الميدان، وهو حاسم كذلك في إعادة الاعتبار للعلم العربي الذي تنكرت له الأدبيات الغربية في مجال تاريخ العلوم.

ثم إنّ هناك أمرًا آخر يتعلق بحلم إنجاز المعجم التاريخي للعربية، ذلك أنّ المصادر المعجمية القديمة والحديثة يمكن أن تعدّ مصادر لمتابعة العمل نحو إنجاز المعجم التاريخي للغة العربية.

معنى ذلك أنّ ملاحظة الألفاظ الدالة على المنجزات الحضارية على امتداد العصور التاريخية من خلال حضورها في المعاجم -عصرًا بعد عصر- سيسهم في تزويد مشروع والحضارية العربية على امتداد التاريخ.

رابعًا- الوظيفة الاجتماعية والنفسية:

لقد أدرك الدارسون والمؤرخون أنّ حركات الاحتلال الغربي تركت آثارًا مدمّرة على النفس العربية كان من نتائجها فقدان هذه النفس العربية وفي لغتها الوطنية.

وقد حاول زعماء التحرر الوطني أن يعيدوا إلى النفس العربية بعضًا من هذه الثقة المفقودة التي تعرضت لغير قليل من علامات الاغتيال.

ومن الممكن أن تسهم معاجم ألفاظ الحضارة الحديثة بما تضمنه من ألفاظ ومفاهيم كثير منها استوعبته اللغة العربية وعبّرت عنه بامتياز في استعادة الشخصية العربية لثقتها في نفسها، وإعادة تأسيس الإيمان

بقدراتها، ومعارفها، وقدرة لغتها على التعاطي مع مستجدات الحضارة الحديثة.

وفي ذلك إعانة ظاهرة على تقديم الدعم النفسي لهذه النفس العربية، ومحاصرة علامات فقدان الثقة.

وفي الوقت نفسه تستطيع هذه المعاجم أن تدعم الحراك الاجتماعي نحو توطين ثقافة الانتماء للسان القومي، وتوسيع شريحة المؤمنين بقدرة هذا اللسان على استيعاب العلوم الحديثة، مما يسهم في دعم دعوات التعلم والتعليم بها.

خامسًا- الوظيفة التربوية والإقناعية:

إنّ جزءًا من نجاح معاجم ألفاظ الحضارة الحديثة في الوفاء بوظائفها الاجتماعية والنفسية تعيين مرهون بما تسهم به في تحقيق الإقناع بقدرات اللغة العربية على التعامل مع المعاني الجديدة، والمفاهيم الحديثة والمبتكرات والمخترعات الوافدة.

وفحص المعاجم الحضارية الحديثة فحصًا دقيقًا متأنيًا ولاسيما على مستوى أشكال صناعة المصطلحات تعريبًا ونقلاً، أو اشتقاقًا ونحتًا قائد تحقيق الإقناع بجدوى تعريب العلوم الحديثة، لأنّ الجهاز الصرفي والمصطلحي للغة العربية قادر على النجاح في هذا السبيل؛ لاعتبارات واقعية وتاريخية معًا.

وإذا تحقق أمر هذا الإقناع أمكن بعده أن نحقق نجاحات على مستوى الوظيفية التعليمية والتربوية؛ لأنه سيهيئ الأجواء على قبول تعلّم العلوم

الحديثة الوافدة باللغة الوطنية القادرة ساعتئذ على التعبير عنها، والتعامل معًا.

إنّ جزءًا من الأزمة العربية المعاصرة ناتج عن خوف قديم من العجز الذي صوّره غير فريق على أنه من خصائص العقل العربي.

وهو الأمر الذي تحطّم على صخرة تاريخ المعجمية العربية قديمًا، وتحطّم على صخرة ما أنجزته المؤسسات العلمية والأفراد معًا من معاجم معاصرة لألفاظ الحضارة الحديثة.

* قسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة المنوفية- مصر.